تجديد علمي الحديث والفقه الأندلسيين في «بجاية» و«بونة»

أ/مراد صغير
أستاذ معيد

الحمد لله الهادي إلى سبيل الرشاد، أمر عباده بطاعته ووعدهم بجزيل الثواب، ونهاهم عن معصيته وتوعدهم بسوء المآب، أحمده كما يحب ويرضى، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين.

أمّا بعد:

فإنّ مدينة «بجاية» تزهو بتاريخ جليل، فهي تعدّ بحقّ من أقدم وأرفع المراكز الحضاريّة الإنسانيّة، كما كانت في عصرها الذّهبي، الدولة الحضمادية، ورغم أنّ هذه الفترة قد تناولها الباحثون بالدراسة غير أنّها لم تنل مكانتها التي تليق بها، فارتأيت أن أساهم ولو بقسط يسير في إبراز مكانة حضيرة «بجاية» بين الحضائر الإسلامية.

ولقد بدأت علاقة بلاد المغرب العربي وعلى وجه التخصيص الجزائر بشبه الجزيرة الإيبيريّة (إسبانيا والبرتغال)، والمعروفة بالأندلس منذ الخلافة الأموية، ثم أصبحت هذه العلاقة أكثر تلاؤما بعد أن تمكّن المرابطون ثم الموحدون من ضمّ أقاليم الأندلس إلى ممتلكاتهم بأقطار المغرب العربي ومنها الجزائر، ونحن في هذه المقالة لا نتعرّض إلى العمران بما في ذلك من تدشين للمدن في مناطق عديدة للجزائر ولا إلى النشاط الاقتصادي، إذ من شأن كلّ حضارة مرّت أن تترك آثارا عمرانية وثقافية وغير ذلك، وإنّما نتكلّم عن إسهامات الأندلسيين والتجديد للحديث والفقه في حضيرة «بجاية» ، إذ لا أكاد أعدو إن قلت إنّ

وجود الأندلسيين في هذه المدن كان له دور الريادة، وعامل الإبداع في استمرار الإسهام الفكري والإنتاج العلمي.

مدينة «بجاية»:

كانت طليعة هذه المدن ، مدينة «بجاية»، فالموقع المتوسط ل«بجاية» على السّاحل الجزائري جعلها مقابلة للسواحل الأوروبية، ونقطة اتّصال مع سواحل الأندلس، وكان أول من اختطّها الناصر بن علناس[1] بن حماد بن زِيرِي بن مَناد بن بُلُكّين في حدود سنة 457 هـ، وكانت قديما ميناء فقط ثم بنيت المدينة، وهي في لِحْفِ جبل شاهق وفي شاهقها جبال كانت مِلك بني حماد، وتسمى الناصريّة أيضا باسم بانيها[2]، وكانت تشتمل على أراض طيبة وجبال جالبة للأمطار وأودية حافظة لها، وعَنِيَ الحماديون بحفظ الأمن واستخراج خيرات المملكة، فلم يتوانوا في إطفاء الثورات الداخلية وصدّ الهجمات الخارجية، وتنظيم البريد وتأمين السّبل، نشطت الفلاحة فأحييَ موات الأرض وازينت البوادي وضواحي المدن والقرى بالمزارع على اختلاف أنواعها، ونصبت الأرحاء على أرجاء الأودية والجداول وغُرِست البساتين، ونفقت الأسواق بمختلف البضائع وأصبحت تشقّها أسراب السّفن في البحر غادية رائحة، فصارت القلعة مدينة تجاريّة عظيمة.

وكان "محمد بن حمّاد" ببجاية ولوعا بندب آثار أسلافه الحمّاديّين بالقلعة وما حولها من الأمكنة فمن ذلك:

وقصر بلارة أودى الزمان به	فأين ما شاد منه السادة الأول	

وله:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة	بوادي الجوى ما بين تلك الجداول	

وهل أسمعن تلك الطيور عشية	تجاوب في تلك الغصون البلابل .[3]	

تأسّست الدولة الحمّاديّة سنة 405 هـ وسقطت سنة 547 هـ، فكانت مدّتها 142، سقطت وهي أقوى ما يكون كما يموت المرء وهو في عنفوان شبابه، وبسقوط الدولة الحمادية انقرضت الدولة العباسية من المغرب[4].

علاقة «بجاية» بتلمسان:

استقطبت "«بجاية»" نخبة من علماء حواضر المغرب للتدريس بها مثل: عبد الكريم النهشلي المسيلي المتوفى 405 هـ، وأبي إسحاق التجيبي التلمساني المتوفى 672 هـ، الذي شغل منصب القضاء بها، وأبي عثمان سعيد بن محمد بن محمد العقباني التلمساني المتوفى 811 هـ، تولّى قضاء «بجاية» أيام حكم المريين لها وغيرهم.

وبهذا تظهر علاقة علماء «بجاية» بعلماء الأندلس لوجود علماء تلمسانيين في «بجاية» وتولّيهم مناصب التدريس والقضاء.

الحماديون والمسيحيون:

عَرف المغرب في هذا العصر البربري من أمم أوروبا المسيحية أمة النرمان[5] انتشروا في الشرق إلى الغرب وسكنوا قرب الأودية الفرنسية أوروبا وانتقلوا في أيام شرلمان **charleman**، واستقروا سنة 299 هـ بِنَرْدمان إحدى كور فرنسا.

وكانت القرصنة بالبحر أهم أعمالهم، وهجموا على الأندلس من ناحية أش»بونة» سنة 299 هـ.

وحدث بين الصقليين شقاقا فاستعان بعضهم بالنرمان، فخفّوا لنصرتهم، وبذلك ذهبت شهيدة الخلاف والخديعة، فاستولى النرمان عليها سنة 485 هـ، وأصبحت مركزا عظيما للنصارى في الحروب الصليبية.

وكان الحماديون أقوياء فلم يقدر النرمان على التوسع إلا في المملكة الشرقية الضعيفة.

كان الحماديون يرون في توهين الرومان لبني عمهم[6] إعانة لهم على امتلاك ممتلكاتهم يوما ما. ورأى النرمان أن لا يهيّجوا الحماديين بسوء، فظلت العلاقة حسنة، ولكن النرمان لما رأوهم ملكوا جربة وطمعوا في الهدية قلبوا لهم ظَهر المِجن[7].

الحركة الفكرية في «بجاية»:

لا شك أنّ أسباب التطور الفكري ترجع إلى أمرين مهمين:

أولهما: التقدم العلمي الذي تحقق بفضل بني حماد، فقد تعرّب قسم كبير من البربر ونشّطت الدولة العلم وأهله، وأمَّ حضْرتها العلماء من إفريقيا بعد خرابها.

وثانيهما: الهجرة الأندلسية التي بدأت في هذا العصر إثر الحوادث الكبرى والانقلابات التي داهمت الأندلس من المرابطين إلى الموحدين إلى ملوك الطوائف. ولما انتصب العلماء الأندلسيون بالقطر وعلى سبيل الخصوص ببجاية كانوا قد وجدوا جوا وأفكارا قابلاة للتلقيح، وأمة متعطشة منشطة لمن يبثّه في أوساطها.

ولا ريب أنّ هذه الحركة هي التي كانت مقدمة للحركة الكبرى العقلية التي تمّت على عهد بني زيان.

ولم يهاجر الأندلسيون وحدهم بل هاجر أيضا بعض الصقليين، ومن المعلوم أنّ صقلية كانت في رقيّ الأندلس من حيث العلمُ والأدبُ، وأنّها لمّا استولى عليها النرمان هاجر أهلها إلى إفريقيا والجزائر.

فممّن هاجر إلى الجزائر: عبد الرحمن القرشي الصقلي، كان عالما بالفقه والنحو واللغة، مدرسا بارعا، أخذ عنه من «بجاية» العلم منهم: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوغنيسي.

وقد أمَّ حضرة «بجاية» العلماء من أنحاء إفريقية وعلى الخصوص من تونس حتى أصبحت من أرقى المدن الإسلامية في العلم والأدب والتدريس[8].

مدرسة «بجاية» الأندلسية:

لقد كان للأندلسيين تأثير بالغ في الحياة الثقافية بالمغرب العربي طيلة الفترة الإسلامية، وقد تكونت بفعل هجرة الأندلسيين إلى عواصم المغرب مراكز

علمية كان للعنصر الأندلسي فيها دور الرّيادة وعامل الإبداع، وكانت في طليعة المراكز والمدارس الفكرية الأندلسية بالمغرب العربي مدرسة «بجاية» التي لعبت دورا مهما في الحياة الثقافية المغربية في القرنين السادس والسابع للهجرة، لكن لم تحظ مع أهميتها باهتمام أغلب الباحثين في مجال التراث الأندلسي.

لقد عمل على تأييد مكانة «بجاية» العلمية وساعد على جعلها مركز إشعاع علمي أندلسي بالمغرب عوامل عدة منها:

1 – موقع «بجاية» المتميز من حيث الحصانةُ الطبيعيةُ.

2 - كون «بجاية» قاعدة المغرب العربي، وذلك منذ أن أصبحت عاصمة لدولة الحماديين فاستقر بها رجال الدولة والعلماء وقصدها التجار وطلبة العلم على عهد المنصور الحمادي وخلفائه من ملوك بني حمّاد وهم باديس والعزيز ويحي.

كلّ هذه المواصفات جعلت «بجاية» الناصرية محلّ إعجاب الأدباء[9].

سمحت هذه الظروف والوضع الاجتماعي المتميّز للجالية الأندلسية ببجاية لجماعة علماء الأندلس أن تقدّم إسهاما فعليّا وأن تكون لها مشاركة إيجابية في تطوّر الثقافة العربية الإسلامية ببلاد المغرب ممّا ساهم على تأصيل التّراث الأندلسي وأبقى الطّرق والأساليب العلميّة الأندلسيّة حيّة.

ولعلّ أهمّ إسهام للمدرسة الأندلسيّة البجائيّة في تطوير الثّقافة العربيّة الإسلاميّة ببجاية يتمثّل في تجديد طريقة الدّراسة وتطوير أساليب تلَقّي المعلومات[10]، بحيث تُولي أهمة خاصة، خاصة للبحث والتّفكير وإلقاء الأسئلة والمحاورة والمذاكرة بهدف إفهام الطالب وترسيخ المعلومات في ذهنه، وهذا ما كان يقوم به بعض أعلام «بجاية» الأندلسيون من مذاكرات، فقد ذكر "الغبريني" أنّ أبا محمد عبد الحق الإشبيلي، وأبا عبد الله محمد بن عمر القرشي، وأبا علي المسيلي كانوا يتناظرون في مباحث العلم والفقه بإحدى الحوانيت بطرف حومة المقدسي ببجاية، ويواظبون على ذلك حتى عرف ذلك الحانوت " بمدينة العلم "[11].

ومن العلماء الأندلسيين الّذين جدّدوا طريقة التّدريس ببجاية محمد بن إبراهيم الآبلي ت 757 هـ، فرغم قِصر المدّة الّتي جلس فيها للتّدريس ببجاية فإنّ الآبلي انتقد غياب الدّافع الشخصي للدراسة والمبالغة في الحفظ والاعتماد المطلق على النّصوص الّتي عُرف بها المغاربة، وهذا ما جعله يتحفّظ على أساليب علماء عصره الذين كانوا يعتبرون الطالب وعاءً، على الأستاذ أن يملأه بالمعلومات الغزيرة في شتى العلوم، وقد ذهب في ذلك إلى حدّ قوله:« إنّما أفسد العلم كثرة التواليف وأذهبه بنيان المدارس »[12]

ومع هذا التجديد في طرق التدريس للعلوم العقلية خاصة فإنّ أساليب إسناد الأحاديث ظلت محافظة على منهجها القديم، فكان الأسلوب التقليدي هو المنبع في عرض الرواية وتصحيح السند وتخريج الحديث ومناقشة الآراء المتعلقة بالأحاديث المتصلة بالمسائل الفقهية، فقد جرت العادة أن يقوم أحد الطلبة بقراءة متن أحد الكتب ويتولى الأستاذ شرحه فقرة فقرة حسب غزارة علمه وسعة اطلاعه، والطلبة يقيدون ما يستدعي انتباههم في شرح الأستاذ وأجوبته على أسئلة الطلبة، وهذا ما جعل سند المغاربة وفي مقدمتهم أهل «بجاية» حسب قول ابن خلدون « متصلا بمشيخة الأندلس الذين عبروا نحو إفريقيا (أجازوا) عند تغلب النصارى على شرق الأندلس... »[13].

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره "الغبريني" في ترجمة أبي بكر بن سيد الناس اليعمري الإشبيلي الذي ولي الصلاة والخطبة بالجامع الأعظم ببجاية حيث إنه كان يقوم على البخاري قياما حسنا، وكان إذا قرأ الحديث يسنده إلى أن ينتهي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إذا انتهى الإسناد رجع إلى ذكر رجاله فيبدأ من الصحابي رضي الله عنه فيذكر اسمه ونسبه وصفته... وبعد الفراغ من ذلك يذكر لغة الحديث وعربيته، ويتعرض لما فيه من الفقه والخلاف العالي ولدقائقه ورقائقه والمستفاد منه، كل ذلك بفصاحة لسان وجودة بيان.[14] (15)

الأندلسيون والصقليون ممن دخلوا «بجاية» من محدثين وفقهاء:

إنّ الرّأس التي تقوم عليه مدينة «بجاية» الزّاهرة منذ أحقاب كنقطة فصل بين المغرب الشرقي وبين صقلية ومالطة، وبين المغرب العربي وبين الأندلس والبرتغال الإسلامي، هو في الحقيقة همزة وصل بين جناحي المغرب، فكأنّ هذا الوضع الجغرافي يعين منذ الأول الدّور العظيم الذي قامت به «بجاية» في ازدهار العلم.

فمنذ سقوط الأندلس بيد الصليبيين، بدأت هجرة العلماء إلى بلدان المغرب، ومن بين هذه المناطق مدينة «بجاية» التي هاجر إليها أعداد هائلة من علماء الأندلس لِما وجدوا فيها من جو مناسب واستقرار وقَبولية أهلها وتعطشهم لطلب العلم.

ولعل أقدم أندلسي أقام ببجاية ودرس بها هو: - أبو عثمان سعيد بن مجلون[16] بن سعيد بن عثمان الأموي محدّث الأندلس الفقيه العالم الثقة، أصله من البيرة وسكن «بجاية»، ولد سنة 253هـ، سمع من بقي بن مخلد وابن وضاح وإبراهيم بن قاسم ومطرف بن قيس، ويوسف المقامي، رحل إلى لمشرق ولقي أبا عبد الله النسائي، وأحمد بن ميسر وأخذ عنه الفقه، وانفرد برواية كتب ابن حبيب، وذكره ابن فرضي وأثنى عليه، وآخر من روى عنه أبو علي يعقوب شيخ أبي عمر بن عبد البر، وعنه أخذ ابن أبي زيد وغيره، توفي سنة 346هـ[17].

- عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد بن إبراهيم أبو العباس، الأزدي الإشبيلي المعروف بابن الخراط، ولد سنة 510هـ، وارتحل إلى «بجاية» سنة 550هـ وله من التآليف: الأحكام الكبرى في الحديث ، والوسطى، والأحكام الصغرى[18]، وعمِل: الجمع بين الصحيحين[19]، وله مصنف كبير جمع فيه بين الكتب الستة، وكتاب المعتل من الحديث، وكتاب الرقاق، وله كتاب العاقبة في علم التذكير، وله اختصار الرشاطي، ومصنفات أخرى، توفي عام 582هـ[20].

- أحمد بن طاهر بن علي بن عيسى بن محمد بن اشْتَرمِنِّي بن رُصَيْص بن فاخِر بن فَرَج بن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجيّ، من ولد سعد بن عبادة الأنصاريّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، الداني أبو العباس ،

نشأ بمدينة دانية، اشتغل بالسماع والأخذ على محدّثيها، فكانت له عناية بمشايخ بلده فكتب الحديث عنهم، وجمع وتفقّه. قال ابن بشكوال: « كانت له عناية بالحديث ولقاء الرجال والجمع، وحدّث »، تجوّل بالأندلس، ورحل إلى إفريقية للأخذ عن شيوخها، دخل «سبتة» ولقي هنالك القاضي عياض، وجالسهُ كثيرا، وسمع منه فوائد، دخل «بجاية» وسمع من أبي محمد عبد الله بن محمد المقْريّ، دخل "العدوة" (قلعة بني حمّاد) وسمع فيها من بني مروان الحمداني. له مصنّفات منها: كتاب الإيماء إلى أطراف أحاديث كتاب الموطأ[21]، مجموع في رجال مسلم بن الحجاج توفي سنة 532هـ[22].

- أحمد بن عبد الملك الأنصاري الظاهري، من علماء الأندلس مرّ ببجاية ودرّس بها، له كتاب المنتقى الذي جمع فيه ما تفرّق من أمّهات المسندات ونوازل الشارع، توفي سنة 549هـ[23].

- أبو جعفر أحمد بن عبد الحق الخزرجي القرطبي، كان علما بالحديث والرواية، له تآليف عدّة منها : آفاق الشموس وإعلان النفوس وقامع الصلبان ومرتع رياض أهل الإيمان، توفي سنة 582هـ[24].

- قاسم بن فييرة[25] الرعيني[26] أحمد بن محمد بن عثمان التجيبي المعروف بابن أرفع رأسه، طليطلي سكن قرطبة سمع من قاسم بن أصبغ وابن أيمن وابن الشاط وغيرهم، وشاوره بن أسلم ومنذر وغيرهما. وولي قضاء طليطلة وبطليوس، بنى حصون الثغر وكان موثوقاً به مأموناً على ما تولاه، صاحب القصيدة التي سماها: "حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات"، وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتاً ولقد أبدع فيها أكمل الإبداع، وهي عمدة قرّاء أهل هذا الزمان في نقلهم فقلّ من يشتغل بالقراءات ولا يقدم حفظها ومعرفتها، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإشارات خفية لطيفة، وما أظنه سبق إلى أسلوبها. ونظم قصيدة دالية في خمسمائة بيت من حفظها أحاط علماً بكتاب التمهيد لابن عبد البر. وكان عالماً بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيراً، وبحديث رسول الله ﷺ مبرزاً فيه، وكان إذا قرأ عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ يصحح النسخ

من حفظه ويملي النكت على المواضع المحتاج إليها، وكان أوحد أهل زمانه في علم النحو واللغة عارفاً بعلم الرؤيا، حسن المقاصد مخلصاً فيما يقول ويفعل، قرأ القرآن العظيم بالروايات على أبي عبد الله: محمد بن علي بن أبي العاص النفزي المقرئ وأبي الحسن: علي بن هذيل الأندلسي وسمع الحديث من أبي عبد الله بن سعادة وأبي عبد الله: محمد بن عبد الرحيم الخزرجي، يعرف بابن الفرس وغيرهم وانتفع به خلق كثير.

وكانت ولادته في آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، ودخل مصر سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وكان يقول - عند دخوله إليها - إنه يحفظ وقر بعير من العلوم. توفي سنة تسعين وخمسمائة ودفن بالقرافة الصغرى في تربة القاضي الفاضل[27].

- أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء بن مهند بن عمير اللخمي، قرطبي جياني الأصل قديماً، أكثر عن شريح وتلا بقراءة الحرمين عليه وأكثر عن أبي بكر بن العربي وأبي جعفر بن عبد الرحمن البطروجي، لقي بسبتة أبا الفضل: عياضاً، وكلهم أجاز له، وغيرهم كثير، وتأدب في العربية بأبي بكر بن سليمان بن سحنون وأبي القاسم: عبد الرحمن بن الرماك ودرس عنده كتاب سيبويه، وأبو القاسم بن بشكوال من شيوخه أيضاً. وروى عنه خلق كثير، وكان مقرئاً مجوداً محدثاً مكثراً قديم السماع واسع الرواية عاليها ضابطاً لما يحدّث به ثقة فيما يؤثره.

نشأ منقطعاً إلى طلب العلم وعني أشد العناية بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم، فكان أحد من ختمت به المائة السادسة من أفراد العلماء وأكابرهم، ذاكراً لمسائل الفقه، عارفاً بأصوله، متقدماً في علم الكلام ماهراً في كثير من علوم الأوائل كالطب والحساب والهندسة، ثاقب الذهن، متوقد الذكاء، متين الدين طاهر العرض حافظاً اللغات بصيراً بالنحو ممتازاً فيه مجتهداً في أحكام العربية منفرداً فيها بآراء ومذاهب شذ بها عن مألوف أهلها.

كان بارعاً في التصريف من العربية كاتباً بليغاً شاعراً مجيداً متحققاً في المعقول والمنقول غير أنه أصيب بفقد سمعه عند استيلاء الروم - دمرهم الله- على المرية، وكان كريم الأخلاق حسن اللقاء جميل العشرة، ولم يزل مدرساً للعلوم ناشراً ما لديه من المعارف، واستقضي ببجاية، وقلّد بمراكش أيضاً قضاء الجماعة واستقضي بفاس، ثم دخل إلى الأندلس وتفرّغ لإفادة العلم صابراً محتسباً ممكناً طلابه منه إلى أن توفي - عفا الله عنه - بإشبيلية سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة. ومولده بقرطبة سنة ثلاث عشرة وخمسمائة[28].

- محمد بن عبد الرحمن بن سليمان التجيني المرسي أبو عبد الله، نزل «بجاية» وأخذ عنه بعض علمائها سنة ستّ وسبعين وخمس مائة للهجرة، وسمعوا منه كتاب تلقين الوليد، غادر «بجاية» ليستقرّ نهائيا بتلمسان، توفي سنة 610هـ[29].

- محمد بن جعفر بن أحمد المخزومي الأندلسي، عارف بالفقه والرواية، أخذ عن الشيخ عبد الحق الإشبيلي وحصل منه على إجازة، اشتهر باتّزان عقله، استقدمه الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحّدي من «بجاية» وقرّبه إليه وجعله كاتم أسراره توفي سنة 632هـ[30].

- الحسن بن محمد بن الحسن الأنصاري الأندلسي من أهل لرية عمل ببلنسية، يكنى أبا علي المعروف بابن الرهبيل أبو جعفر، عالم بالحديث وأمور الفقه، سمع من أبي الحسن بن النعمة كثيرا واختص به وعنه أخذ القراءات وسمع من ابن هذيل أيضا ثم رحل حاجّا فلقي بالإسكندرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أبا طاهر السِّلفي وأبا عبد الله بن الحضرمي، وسمع منهما وجاور مكّة، وأخذ بها عن أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي صحيح البخاري وكان يرويه، وأجاز له أبو المفاخر سعيد بن الحسين الهاشمي وأبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي ببجاية، قدم «بجاية» ثمّ غادرها إلى المشرق واشتغل بالأسكندريّة ثمّ عاد إلى «بجاية» سنة اثنين وسبعين وخمسمائة للهجرة

ودرس بها، توفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ومولده سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة توفي سنة في أواخر القرن السادس للهجرة[31].

- محمد بن أحمد بن عبد الله الأنصاري الأندلسي، عالم في مسائل الفقه وأمور الدين، نزل ببجاية ودرس بها، توفي سنة 621هـ[32].

- علي بن أحمد بن عبد الله البلنسي، مكث مدّة ببجاية وهو في طريقه إلى المشرق سنة ثمان وسبعين وخمسمائة للهجرة، توفي سنة 634هـ[33].

- سعيد بن علي بن زاهر البلنسي أبو عثمان، عالم بالرّواية وإمام في القراءات، قدم «بجاية» وأقرأ بها ، وأخذ عنه كثير من علمائها، وظلّ مواظبًا على التدريس حتى توفي سنة 654هـ[34].

- علي بن أحمد الأنصاري الإشبيلي المعروف بابن السّراج أبو الحسن، عالم بالرواية والسّند وتخريج الحديث، اشتهر بالزهد، استوطن «بجاية» وأخذ عنه طلبتها، وظلّ مواظبًا على التدريس، توفي سنة 657 هـ عن عمر يناهز المائة سنة[35].

- عبد الله بن عبد الرحمن بن أشكورنة الأزدي المرسي المعروف بابن برطلة أبو محمد، من علماء الحديث، عُرف بزهده واشتهر بخطبه البليغة، تخلى عن الخطابة بمرسية ونزل «بجاية» وتولى الإمامة والخطابة بجامعها، تحوّل عنها إلى مدينة الجزائر وتولى القضاء بها قبل أن ينتقل إلى تونس، توفي سنة 661هـ[36].

- أحمد بن محمد الصدفي الشاطبي أبو العباس، عالم بالرواية والقراءات، قدم «بجاية» وأقرأ بجامعها واستقرّ بها، له تأليف في رسم الخط وفي بيان مذهب ورش، توفي سنة 674هـ[37].

- يحيى اللّقنتي الأندلسي أبو زكريا، فقيه حافظ ومحدّث عارف بالأسانيد، نزل «بجاية» واستوطنها وأقرأ بها بالجامع الأعظم، توفي في أواخر القرن السابع الهجري[38].

- أحمد بن محمد بن الحسن الغماز الأنصاري البلنسي أبو العباس، عالم بفنون اللغة ومسائل الفقه، أقام ببجاية وولي القضاء بها سنة اثنين وستين وستمائة للهجرة، وكلّف بإمامة الصلوات الخمس، وتولّى أمر البلد فحفظ الأمن بها في غياب جيش الأمير الحفصي، عُرف ببعد همّته وحسن تصرّفه، أخذ عنه علماء أجلاّء مثل أبي الربيع سليمان، والغبريني، استقدمه المستنصر الحفصي إلى "تونس" وقرّبه إليه وأوفده في سفارة إلى المغرب، توفي سنة 693هـ[39].

- محمد بن صالح الكناني الشاطبي أبو عبد الله، من علماء الحديث والرواية، غادر مسقط رأسه شاطبة والتجأ إلى «بجاية» سنة خمس وأربعين وستمائة للهجرة، درّس بها وخطب في جامعها، ولم تفته فيها جمعة لمدّ ثلاثين سنة، تعرّف عليه العبدري عند مروره ببجاية، وقرأ عليه الموطأ والشمائل للترمذي ورياض المتعلمين، واعتبره آخر من بقي من العلماء ببجاية من حيث المحافظةُ على السند والرواية، توفي سنة 699هـ[40].

- محمد بن علي المرسي أبو عبد الله، فقيه راوية عالم باللغة والأسانيد، أقام مدّة ببجاية، واشتهر فيها بخطبه البليغة وتخريجه للأحاديث، توفي سنة 728هـ.

- علي أبو الحسن الشهير بالزيات ، قدم «بجاية» من "الأندلس"، وأقرأ بها كتب المذاهب ثمّ رحل إلى تونس[41].

- أحمد بن محمد القرشي الغرناطي أبو العباس، فقيه مفسر وراوية محدّث،من العارفين بما أُلّف في مختلف فنون العلم، له اعتناء بالرواية وبالبحث عن الأخبار ومعرفة الرجال من أهل العصر ومن المتقدمين، له تصنيف على القرآن اعتمد فيه طريقة جديدة في العرض والتّحليل، استقر ببجاية ودرس بالجامع الأعظم وعمل على تسجي ما أُلّف على عهده، وقد راسل في ذلك بعض علماء المشرق للاطّلاع على ما ألّفوه، قبل أن يتحوّل من «بجاية» إلى "تونس"[42].

مدينة «بونة» :

مدينة بإفريقية بين مرسى الخَرز وجزيرة بني مَزْغَنَايْ، وهي مدينة حصينة مقتدرة كثيرة الرُّخص والفواكه والبساتين القرينة، وأكثر فاكهتها من باديتها، وبها معدن الحديد، وهي على البحر، ويطلُّ على «بونة» جبل زغوغ[43].

إبتداء الهجرة الأندلسية إلى المغرب وسقوط «بونة» :

إنّ طغيان الإسبان على الأندلس واعتداءاتهم المتكررة كان له تأثير عظيم على المسلمين، على جمعهم وجماعتهم هناك كما هو معروف من تاريخ الأندلس الحزين، فأخذوا يتسللون لواذًا ملتجئين إلى هذا الشمال الإفريقي ابتداء من سنة 856هـ، فحلّ أكثرهم يومئذ بالجزائر فلحقهم الإسبان بمراكبهم، فكان ذلك ابتداء الحروب البحرية بين الجزائريين وبين الإفرنج، وكان اتّحاد الجالية الأندلسية مع أهل الجزائر مناوأة العمارة الإفرنجية بهذا البحر الأبيض المتوسط سببا في سقوط «بونة» بيد الإسبان سنة 867هـ، ثمّ تبعها غيرها من السّواحل الجزائرية[44].

من مشاهير «بونة»:

أبو عبد اله مروان بن علي أو محمد الأسدي القطان البوني – نسبة إلى «بونة» عنابة، وهو خال أبي عمر القطان الفقيه، أصله من الأندلس، رحل منها ودخل القيروان وطلب العلم بها، ثمّ استقرّ ببونة، سكن المترجم مدينة قرطبة وفيها روى عن أبي أحمد الأصيلي والقاضي أبي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن فطيس وغيرهما، وارتحل إلى المشرق فأخذ هناك عن أبي الحسن القابسي، ولازم أبا جعفر أحمد بن نصر الداودي التلمساني فأخذ عنه علم الرواية والدراية. تجرّد إلى خدمة العلم بالتدريس والتأليف فكتب شرحه المختصر لموطأ الإمام مالك[45]، وقد كان معوّل الناس يومئذ في دراسة الموطأ على هذا الشرح فتداولوه بينهم بكثرة، وكان ممن أخذه عنه حاتم الطرابلسي وأبو عمر بن الحذاء، وقال عنه إنّه كان رجلا صالحا عفيفا عاقلا لقيته ببونة سنة 405هـ وناولني كتابه في شرح الموطأ.

وكان ممّن حدّث عنه أيضا أبو القاسم بن محمد، فقال لقيته بالقيروان، وكان رجلا حافظا ناقدا في الفقه والحديث، وقرأت عليه بعض تفسيره للموطأ. قال أبو عمر: « توفي ببونة ». وذكر الحميدي فقال : «كان فقيها محدثا وله كتاب كبير شرح فيه الموطأ، مات قبل الأربعين وأربعمائة »[46].

وفي الأخير هذا ما بدا لي من جمع هؤلاء العلماء الأندلسيّين، والذي أوصي الباحثين بأن ينفضوا الغبار عنهم بالاهتمام بدراسة حضائر تلمسان و «بجاية» و «بونة»، وهذا يعدّ جهد المقلّ، فما كان صوابا فمن الله، وما كان خطأ فمنّي ومن الشيطان. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما.

المصادر والمراجع:

1- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، لأبي محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الحميدي الأندلسي ت488هـ، تقديم: محمد زاهد بن حسن الكوثري، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، مكتبة الخانجي القاهرة.

2- صلة الصلة، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي.

3- دراسات أندلسية، للدكتور ناصر الدين سعيدوني.

4 - الفكر الإسلامي، منشورات وزارة التعليم العالي الشؤون الدينية.

5- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن أحمد المقري التلمساني.

6- موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، لعثمان الكعاك.

7- تاريخ الجزائر الثقافي، للدكتور أبو القاسم سعد الله.

8 - التكملة لكتاب الصلة، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي.

9 - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف ت1360هـ، تعليق عبد المجيد خيالي، منشورات محمد علي بيوض.

10- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون المالكي، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنّان. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – ط1: 1417هـ - 1996م.

11 - مقدمة ابن خلدون، تأليف العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الجيل - بيروت - .

12 - الأنساب، للإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التيمي السمعاني ت562هـ، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي. دار الفكر، للطباعة، ط1: 1419هـ - 1998م.

13 - معجم البلدان، للشيخ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر للنشر – بيروت. ط1: لونين – بيروت 1993، ط2: لونين – بيروت .1995

14 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن عماد شهاب الدين الحنبلي الدمشقي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير دمشق – بيروت، ط1: 1411هـ - 1991م.

الهوامش:

(1) أصله : علا النّاس أو علاء النّاس، فخفّف لفظا ورسما، وكان النّاصر جريئا على سفك الدّماء، اختطّ "بجاية" ونسبها إليه، وعَنِي بالعمارة، وقصده الشّعراء، وطالت مدّته.

(2) انظر : معجم البلدان للحموي (1 – 339) .

(3) انظر : تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلي (2 / 262 - 263)

(4) المصدر نفسه : (2 / 269 – 270).

(5) أصل هذه اللفظة نرثمن، ومعناها رجال الشمال وهم من النرويج والدانمارك.

(6) أي لآلي بادبس الذين كانوا ينازعون الحماديين على الملك.

(7) انظر: تاريخ الجزائر في الحديث والقديم لمبارك بن محمد الميلي (2 / 256 _ 257).

[8] انظر: موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي لعثمان الكعاك: ص 205 _ 207.

[9] انظر: دراسات أندلسية للدكتور ناصر الدين سعيدوني: ص 101 – 103.

[10] الطريقة المغربية التقليدية المعتمدة أساسا على تحفيظ القرآن ورواية الحديث والاطّلاع على مبادئ علوم الشّرع واللّغة، والّتي ذكرها ابن خلدون في المغاربة قولَه: " مذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن ".

انظر: المقدمة لابن خلدون: ص 1012.

[11] عنوان الدراية للغبريني: ص 16 – 17.

[12] انظر: نفح الطيب للمقري (5 / 275).

[13] انظر : المقدمة لابن خلدون.

[14] انظر : عنوان الدراية للغبريني ص138، تحقيق : محمد بن أبي شنَب.

[15] ذكر ذلك الدكتور: ناصر الدين سعيدوني في كتابه: دراسات أندلسية ص 109.

[16] الوارد في جميع الكتب سعيد بن فحلون وليس مجلون كما في الترجمة.

[17] انظر : شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف (1 / 133)، الديباج المذهب لابن فرحون ص203 رقم: 246.

[18] مطبوعة، ولعل محمد عبد الحق الإشبيلي يكون قد ألفها في بجاية.

[19] مطبوع، قال عنه الذهبي إنه أحسن ما ألف في الجمع بين الصحيحين.

[20] ترجمته في : عنوان الدراية للغبريني ص18 _ 20، تكملة الصلة لابن الأبّار 647 _ 648، الديباج المذهب (2 / 59 _ 61).

[21] حقّق جزء منه الدكتور رضا بوشامة.

(22) ترجمته: الصلة، لابن بشكوال (1 / 78 _ 79)، الديباج المذهب في أعيان علماء المذهب، لابن فرحون ص 112، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن مخلوف ص 133.

(23) دراسات إسلامية للدكتور سعيدوني ص 115.

(24) دراسات إسلامية للدكتور سعيدوني ص 115.

(25) وفيره بكسر الفاء وسكون الياء المثناة من تحت وتشديد الراء وضمها، وهو بلغة الرطانة من أعاجم الأندلس ومعناه بالعربي الحديد. شذرات الذهب لابن عماد (6 / 494).

(26) والرعيني: بضم الراء وفتح العين المهملة، هذه نسبة إلى ذي رعين من اليمن وكان من الأقيال، وهو قبيل من اليمن.
انظر: الأنساب للسمعاني (3 / 76).

(27) الديباج المذهب، لابن فرحون ص 323 – 324، شذرات الذهب لابن عماد (6 / 494 – 495).

(28) الديباج المذهب، لابن فرحون ص 116.

(29) دراسات أندلسية للدكتور سعيدوني ص 115.

(30) المصدر نفسه.

(31) التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار (1 / 211).

(32) دراسات أندلسية للدكتور سعيدوني ص 116.

(33) المصدر نفسه.

(34) عنوان الدراية ص 137.

(35) عنوان الدراية ص 93 – 94.

(36) عنوان الدراية ص 151 – 152.

(37) عنوان الدراية ص 43 – 45.

(38) عنوان الدراية ص 120 – 121.

(39) عنوان الدراية ص 58 – 59.

(40) عنوان الدراية ص 40 – 42.

(41) عنوان الدراية: ص 92.

(42) عنوان الدراية: ص 169 – 170.

(43) انظر : معجم البلدان، لياقوت الحموي (1 / 512).

(44) انظر : تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن بن محمد الجيلالي (2 / 199).

(45) وهو حاليا تحت الطبع في الإمارات العربية المتحدة بتحقيق الدكتور عبد العزيز دخان.

(46) انظر : جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس للحميدي (2 / 546) رقم : 798، تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن الجيلالي (1 / 316).